

الدكتور الباشا كما عرفته



ربما كنت في التاسعة أو العاشرة من العمر عندما تسلمت سورا مسيجا بالحديد المخرم في بناية الحاج وهبي الحريري التي كانت تقع في ضاحية حلب شمال الملعب البلدي وخلف خط القطار.

وكان الذي دفعني إلى ذلك مع ثلة من أقراني أننا كنا نسمع من خلف السياج أصوات الخطباء المتتابعين في حلقة انتخابية للدعاية للزعيم سعد الله الجابري وقائمه.

وكان الذي شدني ذلك الصوت الجمهوري وهو ينشد أبياتا استلها من شعر الخنساء مغيرا فيها اسم أخيها صخر إلى ممدوحه سعد الله الجابري، إذ كان ذلك الخطيب ينشد:

ضيق ذات يده، وطلب من الجابري أن يُرسل في بعثة إلى القاهرة ليتم دراسته في الأزهر الشريف.

وما إن تم للشباب ما يريد حتى دفعه طموحه إلى أن ينتسب إلى كلية الآداب في جامعة القاهرة إضافة إلى دراسته في الأزهر الشريف.

وعاد الأستاذ الباشا إلى بلده ليعمل مدرسا في ثانويات حلب، وكانت المدارس الخاصة تتنافس في التعاقد معه، وكان يرهق نفسه في التدريس، حيث أتيح لي أن أتعرف عليه، وأن تتوثق صلتني به، وأن يطوق عنقي بموقف لا ينسى، وذلك أن الأستاذ الباشا نقل إلى دمشق مفتشا للغة العربية، وكنت مدرسا

وإن «سعداً» لهادينا وسيدنا

وإن «سعداً» إذا نشتو لنحار

وإن «سعداً» لتأتم الهداة به

كانه علم في رأسه نار

وقد علمت بعد ذلك بزمان غير قليل أن ذلك

الخطيب هو عبد الرحمن الباشا الذي كان آنذاك طالبا في الثانوية الشرعية (الخسروية) في حلب.

وعندما نجحت قائمة سعد الله الجابري أتى بذلك الطالب ليكافئه على جهوده، وعرض عليه أن يعينه في وظيفة مناسبة، ولكن ذلك الشاب الأملعي لم يفرح بما عرض عليه رغم



د. عبد القدوس أبو صالح



ولم يعلق المفتش الباشا بأي كلمة، بل مضى يقرر الدرس عن البحري بصورة لم يعرف الطلاب مثلاً، حتى إذا انتهى الباشا من إلقائه الدرس صفّق الطلاب كلهم إعجاباً بما لم يروا مثله. وخرج المفتش الباشا من الدرس ليكتب تقريراً عما بدر من الأستاذ الذي نال من الوزارة العقوبة الفورية لتصرفه الأرعن.

وتغيرت الأوضاع السياسية في سورية، وصدر قرار تعسفي بنقل الباشا من التفتيش ليكون مديراً للمكتبة الظاهرية في دمشق؛ حيث لم يطل مكوثه فيها، مؤثراً أن ينتقل إلى الرياض أستاذاً في

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. وكان الباشا بحق أنجح الأساتذة في كلية اللغة العربية، ولما قام الملك فيصل -رحمه الله- بزيارة الكليات كان يدخل إلى عدد من الصفوف يستمع فيها دقائق معدودة لبعض الأساتذة الذين اختارهم عمادة الكليات. ولما دخل الملك فيصل إلى الفصل الذي كان الباشا يدرس فيه مكث يستمع إلى هذا الأستاذ القدير حتى قرع جرس الكلية مؤذناً بانتهاء المحاضرة!

وما هي إلا سنوات حتى أصبحت الكليات والمعاهد العلمية جامعة باسم جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، واختير الأستاذ الباشا رئيساً لقسم البلاغة والنقد، ثم ما لبث أن تقدم إلى لجنة المجلس العلمي باقتراح أن تقرر مادة الأدب الإسلامي في كلية اللغة العربية، وكان من التوافق العجيب أني تقدمت في الفترة ذاتها بمثل هذا الاقتراح إلى لجنة المجلس العلمي التي كنت أحد أعضائها.

وقد درست هذه اللجنة الاقتراحين معاً، وأصدرت قراراً بتدريس مادة الأدب الإسلامي، ورفع الأمر إلى

في ثانوية المأمون بحلب، ولم تكن صلتى بمديرها آنذاك صلة جيدة، وكنت أدرّس في الصفوف النهائية للطلاب بفرعها الأدبي والعلمي، ولما أعلنت نتائج الثانوية العامة لم يرسب أحد من طلابي في الفرع الأدبي، ومع ذلك فإن المدير الذي أوكل إليه توزيع ساعات التدريس في مطلع العام الدراسي أنزلني من الصفوف النهائية نكابة وتشفياً، وما كان مني إلا أن رفعت كتاب تظلم إلى وزارة المعارف التي ما لبثت أن أعادتني إلى التدريس في الصفوف النهائية، وكان



الفضل في ذلك للدكتور الباشا وإنصافه.

ومن الحوادث التي تدل على شخصية الأستاذ الباشا وسعة ثقافته ومهارة تصرفه أنه دخل على زميل له قديم قياماً بواجب التفتيش، ولكن الأستاذ كبر عليه أن يدخل عليه الباشا مفتشاً؛ فما كان منه إلا أن قال للطلاب متحدياً ومستهزئاً: إنني أترك لسعادة المفتش أن يلقي عليكم الدرس اليوم، وهو عن الشاعر البحري،

مدير الجامعة الذي أصدر قرارا بتغيير مسمى قسم البلاغة والنقد إلى قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي، وكان الباشا رئيسا لهذا القسم، وكان أول من درس مادة الأدب الإسلامي، وأصدر أول كتاب فيها.

وليس أدل على حصافة الأستاذ الباشا وحسن تأتبه للأمور أنه تقدم بكتابه لطبع باسم الجامعة بمناسبة عقد ندوة الأدب الإسلامي فيها، وقد أحال عميد الكلية إليّ هذا الكتاب، وكتبت عنه تقريراً ضافياً. ولما استلم الأستاذ الباشا التقرير المطول كتب عبارة موجزة جداً يقول فيها: إنه سوف يأخذ

بالملاحظات التي يتضمنها التقرير. ولكنه لم يفعل ذلك، وصدر الكتاب ضمن منشورات الندوة المذكورة، دون أن يأخذ بما جاء في التقرير.

وما من شك في أن كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لم تشهد أستاذاً مثل الباشا الذي تحدثنا عن إعجاب الملك فيصل به. وكان طلابه شديدي الإعجاب والتعلق به، وقد اختار بعض المتفوقين

منهم ليصدروا تحت إشرافه موسوعة أدب الدعوة الإسلامية التي بادرت الجامعة إلى طباعة أجزاء كثيرة منها. على أن أشهر ما ألفه الباشا تلك السلسلة الرائعة باسم (صور من حياة الصحابة).

وقد بدأ هذا الكتاب في برنامج إذاعي بالرياض، وما زالت إذاعة الرياض تعيد إذاعته، ثم ما لبثت وزارة المعارف ورئاسة تعليم البنات في السعودية أن قررت هذا الكتاب في المدارس الرسمية في المرحلة المتوسطة للبنين والبنات، وتبعته في ذلك بعض دول الخليج.

وقد تناهت بعض دور النشر في لبنان في طباعة هذا الكتاب مع ما تبعه من (صور من حياة التابعين)، ثم قام يمان وهو الابن الأكبر للدكتور الباشا بإنشاء دار الأدب الإسلامي في القاهرة لتقوم بنشر كتب والده الكثيرة.

وأما موقع الدكتور الباشا من قيام رابطة الأدب الإسلامي العالمية، فقد كان من أجل ما قام به، وقد حضر مؤتمراً عن الأدب الإسلامي في الهند قبل قيام الرابطة، إذ كان سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي وجه دعوة لعدد كبير من الشخصيات والأدباء لحضور هذا المؤتمر الذي عقد في مدينة لكنو في الهند، في شهر جمادى الآخرة من عام ١٤٠٢هـ، الموافق لشهر نيسان/أبريل ١٩٨١م.

وقد عهد إلى الدكتور الباشا أن ينسق الكلمات التي قدمت إلى هذا المؤتمر الذي لم توافق جامعة الإمام على حضوره فيه، وشكا إلي بعد عودته أن أكثر المشاركين لم يكونوا يعرفون ما هو المراد من مفهوم الأدب الإسلامي فكتبوا عن الأخلاق بمعناها الواسع.

وكانت رفقة من الأصدقاء تضم كلا من الدكتور محمد علي الهاشمي، والدكتور عبد الباسط بدر، والأستاذ محمد حسن بريغش، والدكتور حيدر الغدير، والدكتور أحمد البراء الأميري، والدكتور محمد اجتباء الندوي يلتقون في الندوة العالمية للشباب الإسلامي في الرياض، واستقر رأيهم على زيارة الدكتور الباشا ليكون رئيساً لهذه اللجنة، ولما قبل ذلك اتفق الجميع على أن نعرض منصب رئيس الرابطة على سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي - رحمه الله - وهو الذي





أدت النوبة الأولى التي أصابته إلى شلل كامل وعجز عن النطق، وقد زرته في المستشفى التخصصي الذي أدخل فيه، وكان معه ابنه الثاني رضوان، وقد أبكاني عندما أشار إلى ابنه بأصبعيه بما يفيد أن يعتبرني مثله إذا أدركته الوفاة، ولكن الله سلم، وانتهى الأمر إلى شلل نصفي، مع استعادة النطق، ولم يعجزه ذلك بعد استقرار مرضه عن العودة إلى التدريس، وعضويته في المجلس العلمي للجامعة، عن متابعة عمله نائبا لرئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية، ورئيسا لمكتب البلاد العربية.

وكان الدكتور الباشا -رحمه الله، مع أسرته حريصين على إمضاء العطلة الصيفية معي ومع أسرتي، وقد سافرنا أكثر من مرة إلى مرايح إستانبول، وسافرنا مرة من إستانبول إلى مصيف على ضفاف بحيرة كومو في إيطاليا.

وفي المرة الأخيرة كنت مع أسرتي في قرية تريبيا على ضفاف البوسفور في إستانبول فاتصل بي الدكتور الباشا من الرياض طالبا مني استئجار بيت قريب من البيت الذي كنت فيه، ثم ما لبث أن جاء مع زوجته وولده رضوان، حتى إذا قام لبعض شؤونهم في الليل تعثر في عتبة الباب، وأصيب برضوض

شديدة رافقتها نوبة قلبية مما دفع ابنه إلى نقله إلى المستشفى، ولكنه لفظ أنفاسه في الطريق.

وقد شاء الله -سبحانه- أن يدفن الدكتور الباشا في المقبرة التي كانت في جوار حصن إستانبول، وما إن وصل الخبر إلى الرياض حتى قام إخوانه ومحبيه وتلامذته الأوفياء برثائه في قصائد صادقة المشاعر، ومقالات في قمة التقدير والوفاء.

اللهم ارحم تلك النفس الزكية الكريمة! ■

كان رجل دعوة وفكر وأدب مع ما يتمتع به من شهرة عالمية.

وانتدبني اللجنة مع الدكتور عبد الباسط لمقابلة الشيخ أبي الحسن في مجيئه إلى مكة المكرمة. وقد تكرم الشيخ الجليل بقبول رئاسة الرابطة، وتم الاتفاق على دعوة الأدباء الإسلاميين في العالم العربي والإسلامي للقاء في لكنو في شهر ربيع الآخر من عام ١٤٠٦هـ، الموافق لشهر كانون الثاني/يناير ١٩٨٦م، وهو اللقاء الذي لم يتم للدكتور الباشا



الشيخ الندوي يتوسطه د. عبد القادوس والبراء الأثيري

حضوره بسبب مرضه. وفي هذا اللقاء تم اختيار الباشا نائبا لرئيس الرابطة، ورئيسا لمكتب البلاد العربية فيها، ولما عرض القرار على الدكتور الباشا أراد الاعتذار عن عدم قبوله لصعوبة السفر لتفقد مكاتب الرابطة، وتطوعت أن أسافر بدلا عنه عندما تدعو الحاجة.

أما مرض الدكتور الباشا ووفاته، فقد كانا بسبب ما أصابه من مرض السكر والضغط المرتفع، وقد